المقاربة النصية

تمهيد:

نعدّ "المقاربة النصية" من الطرق البيداغوجية الهامة التي خطتها مناهج التعليم المعاصرة في تعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات، وبالأخص في تعليم وتحليل النصوص الأدبية في مساره العملي المنضبط، حيث تكتسي المقاربة النّصية أهميتها من كونها تحلّل النص بتركيزها على جوانبه اللغوية المختلفة؛ الصوتية، والصرفية، والتركيبية والدلالية، والتداولية حتى تتحقق عند المتعلم ليس فقط اللذة الجمالية حين تفاعله مع النص، بل أيضا تمكينه ذهنيا من توسيع مداركه العقلية من خلال استنفار تفكيره إلى مساحات معرفية التي يتضمنها النص، ولكنها لا تظهر إلا بإعمال المتعلم لتفكيره، بالاشتغال على النص بحثا عن عوامل اتساقه، وآليات انسجامه، تنطلق من النص، وتنظر إليه على أنه وحدة كبرى تضمّ وحدات صغرى، تحقق غاياته، فتبحث في كيفية ترابط أجزائه، وعن وسائل هذا الترابط، أشكلية هي، أم معنوية ثم عن السمات النصية والمقومات التي تفرق بين النص، وغيره، بعد أن كانت النصوص بصورتها الكلية تدرس للمتعلم وفق قالب نمطي واحد يعالج من خلاله النص من طرف الأساتذة بصورة أصبحت بعيدة عن مرمى الدراسات اللغوية الفعالة،

ولكن قبل الولوج البيداغوجي لهذ المقاربة علينا أولا أن نضبط مفاهيم ودلالات هذا المصطلح وهو مزج تركيبي متكون من مفردتين مركبتين هما المقاربة والنص

1- ضبط مفاهيمي

أ -المقاربة:

- في اللغة:

يرجع مدلول مصطلح مقاربة وهو ترجمة لكلمة (Approche)في اللغة إلى الدنو والاقتراب، مع السداد وملامسة الحق، فيقال :قارب فلان فلانا إذا دناه، كما يقال :قارب الشيء إذا صدق وترك الغلو ومنه :قرب، أي: أدخل السيف في القراب. " ولكن من خلال الرجوع إلى عديد من المعاجم التراثية والحديثة وجدنا أن مفهوم مصطلح المقاربة يدور حول ما ذكره صاحب ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة والذي هو من "قَرُبَ قُرْبا وقُربانا: دنا، فهو قريب".

- أما اصطلاحا:

فيتمحور معنى هذا المصطلح حول "الانطلاق في مشروع ما، أو حل مشكلة أو بلوغ غاية معينة، وفي التعليم تعني القاعدة النظرية التي تتكون من مجموعة من المبادئ التي يقوم عليها إعداد برنامج دراسي وكذا اختيار استراتيجيات التعليم والتقويم ". ومن هنا نستنتج أن المقاربة النصية هي الدنو من النص والصدق في التعامل معه.

ب- النص:

أ- لغة: يعدّ مفهوم النصّ في الثقافة العربيّة المعجمية من المفاهيم ذات الدلالات المتعدّدة؛ فلو أمعنا النظر فيما أوردته المعاجم العربية تحت مادّة "ن ص ص" لوجدناها تدور في فلك معان لغويّة عدة دون الاشارة المباشرة إلى المعنى الاصطلاحيّ للكلمة إلاّ يسيرا؛ جاءت عند ابن منظور " بمعنى الرفع والظهور والتراكم، فرفع النصّ يُوجب إعادته إلى أصله عن طريق سلسلة رواته، وأورد (الفيروز آبادي) في مادة "نصص" قوله: "نص المتاع: جعل بعضه فوق بعض، والبعير أثبت ركبتيه في الأرض، وتحرك للنهوض". وجاءت أيضا مادة "نصص «بمعنى منتهى الشيء وأقصاه، "قال (الأصمعي): نصصت

ناقتي: النص: السير الشديد: حتى يستخرج أقصى ما عندها، وفي الحديث [إذا بلغ النساء نصّ الحقاق فالعصبة أولى] ؛ أي منتهى بلوغ العقل، ويقال «نصصت الرجل: استقصيت مسألته عن الشيء حتى تستخرج ما عنده، ونص كلّ شيء منتهاه "، فالاستقصاء هنا التتبّع لبلوغ الغاية،". كما جاءت مادة "نصص" بمعنى الحركة "

وجاءت مادة "نصص" بمعنى **التعيين**، فعند (ابن منظور) "النص الإسناد إلى الرئيس الأكبر، والنص التوقيف، والنص التعيين على شيء ما"، كما جاء في أساس البلاغة "نُصَّ فلان سيّدا: نُصّبَ"

- **أما في المعاجم الحديثة** وبالأخص في المعجم الوسيط فنجد أنه جمع كل التعريفات السابق ذكرها ولخصها بصورة أشمل وأعم في تعريف النص ، فجاء: "نَصَّ على الشيء نَصًّا: عيَّنَه وحدَّدَه، ويقال: نصُّوا فلاناً سيِّدًا: نصبوه، ونَصَّ الشيء: رفعه وأظهره، ونصَّ الحديثَ رَفعَهُ وأَسنَدَهُ إلى المحَدّث عنه، ونَصَّ المتاع: جعل بعضَه فوق بعض، ونَصَّ فلاناً: أقعده على المِنصَّة، ونَصَّ الشيءَ: حرَّكَهُ، يقال: هو ينُصُّ أَنفَه غضباً، ونَصَّ الدَّابَّةَ: استحثَّها شديدًا، ونصَّ فلاناً: استقصى مسألته عن شيء حتى استخرج كل ما عنده، والنَّصُّ من الشيء: منتهاه، والنَّصُّ: صيغةُ الكلام الأصلية التي وردت من المؤلّف، والنصُّ ما لا يحتمل إلاّ معنى واحدا، ولا يحتمل التأويل، ومنه قولهم: لا اجتهادَ مع النصّ، والجمع نصوص، والنَّصّ عند الأُصوليّين: الكِتاب والسُّنَّة"

يتبيّن ممّا تقدّم أَن للنصّ دلالات لغوية متعدّدة، ومتنقّلة بين المعنوية، والحسية، وهي لا توحي إلا يسيرا بالمفهوم الذي أصبح متعارفاً عليه اليوم لمصطلح "النص"-كما سيأتي لاحقا-

أما في الثقافة اللغوية الغربية، فيرجع مثلا أصل كلمة نص في الفرنسية إلى «Texte»، بل وفي الثقافة الغربية عموما إلى الأصل اللاتيني "Textus" أي نسج أو جدل، فالدراسة المعجمية للكلمة تكشف أنها تدل على النسيج، وتعني النسيج أو الأسياخ المضفرة ومنه تطلق كلمة (textil) على كل ما له علاقة بإنتاج النسيج، بدءا بمرحلة تحضير المواد، وانتهاء بمرحلة النسيج وبيعه

إذن فقد ترجمت هذه الكلمة في اللغة العربية بكلمة (نص)، ثم تجاور هذا المعنى ، الدلالة اللغويّة إلى النصّ الذي عُدّ نسجا من الكلمات، فالنص إذن نسيج من الكلمات يرتبط بعضها ببعض، وتجمع عناصره في كلّ واحد هو ما نطلق عليه مصطلح (نص)

ب- اصطلاحا:

إذ يعدّ من أكثر المصطلحات إثارة للجدل والاختلاف، حيث تنازعه اختصاصات متعددة لذلك تباينت تعريفات المختصين له، كلّ حسب خلفيته المعرفية، ومدرسته اللسانية، ولكن إجمالا يمكننا القول أن النص مفهوم مشكّل.

أما في الثقافة العربية فقد سار العرب على خطى الغربيين في تباين تعريفاتهم للنص؛ فمنهم من سلك في تعريف النص مسلكا ذا طابع مظهري واصفا النص بكونه سلسلة من الجمل المجموعة تتابعا بحص تكون مفيدة لمعنى معين، وبعضهم رأى تحقق الجانب التواصلي لتحديد مفهوم النص،

2- غايتها

إن تحليل النص وفق هذه المقاربة يطمح أساسا إلى تقديم تأويلات مقبولة للنصوص؛ إذ لا يمكن تأويل النص من خلال تأويلٍ متتالٍ لسلسة الجمل المكونة له؛ أي أن النص ليس تركيبا اعتباطيا لمجموع جمله لأن المضمون الخبري المفرد لعدة جمل -كلّ على حدة- لا يقدم غالبا تأويلا مقبولا لمجموع تلك الجمل فيستحيل تأويل خطاب كامل من خلال

تأويل متتابع للجمل التي يتشكل منها هذا الخطاب بشكل مفرد وهذا ما جعل البيداغوجيين المناصرين لهذه المقاربة يستعينون باللسانيين النصيين الذين يسلّمون بوجود وحدة لسانية أكبر من الكلمة وحتى الجملة هي "النص" الذي يدرس من خلال ما أصبح يعرف بـ اللسانيات النصية.

فالمقاربة النصية عند البيداغوجيين مقاربة تعليمية حديثة مستمدة من البحوث اللسانية المعاصرة تهتم بدراسة بنية النص ونظامه، لا معانيه السطحية أو مضمونه الدلالي، لذلك نجد أنّ هذه المقاربة تنظر إلى النص ككل متكامل، لا أجزاء منفصلة كما كانت تفعل طرق تحليل النصوص القديمة، فهذه المقاربة تؤمن أنّ تعلّم اللغة يتأسس على التعامل معها على أنّها خطاب متناسق الأجزاء، منسجم العناصر، كما تؤمن أنّ القيم الحقيقية للوحدات اللغوية من أصوات وكلمات وتراكيب لا تظهر إلاّ من خلال الأدوار التي تعطى لها في النص.

أما على المستوى التطبيقي داخل المدرسة الجزائرية، وعلى الرغم من حث وزارة التربية الوطنية في مختلف الوثائق التربوية الموجهة للأساتذة على ضرورة تفعيل عملية التعلّم وفق المقاربات الجديدة المتوافقة مع ما انتجته نظريات التعليمية ولسانيات النص، إلا أننا نجد أنّ الكفايات التي تظهر على المتعلمين في مختلف المراحل التعليمية (الابتدائي والمتوسط والثانوي) لا تكشف عن نجاح هذه المقاربة، لذلك ركّزت على (سلامة المناهج وضعف الطرائق) باعتبارها إحدى الوسائل لتثبيت الملكة اللغوية لدى التلاميذ لعلاقتها بالكفاية العقلية توافقا مع ما يراه تشومسكي حينما يقول " فدراسة اللغة تساعد على دراسة قضايا الإدراك عند الإنسان".

ولكن بالتعمّق في أسباب هذا الفشل نجد أنّ السبب يعود بشكل أساسي إلى الطرائق التعليمية المتّبعة من قبل الأساتذة والتي تهدف إلى تحقيق عنصر واحد هو (الفهم) وفي كثير من الأحيان يكون سطحيا لا يلامس الظواهر اللغوية إلاّ في جزئها الظاهر، بينما تقوم المقاربة النصية على ثالوث (القراءة والفهم والتأويل)، فرولان بارت رأى أنّ "النص إنتاج وانفتاح ونشاط مفتوح، ينتجه القارئ في عملية مشاركة لا مجرد استهلاك، وهذه المشاركة لا تتضمن قطيعة بين البنية والقراءة وإنما تعني اندماجهما في عملية دلالية واحدة"، فهذه المشاركة وهذا الاندماج هما ما يحقّق الكفايات التي يمكن ملاحظتها على نتاجات التلاميذ في التعبير الشفوي والكتابي.

لذلك ارتأينا أنّ نشير لهذه المقاربة في علاقتها بكلّ المراحل التعليمية لأنّ مقاربة (القراءة والفهم والتأويل) تنطبق عليها جميعا، ولكن بشكل خاص المستويين المتوسط والثانوي، ومن خلال هذه الدراسة سيبيّن البحث إيجابيات وسلبيات المقاربة النصية في المدرسة الجزائرية، ويقدّم اقتراحات علمية تفيد المعلمين في تناول النص بشكل أكثر عمقا.

3- "النص" في المنجز اللغوي التراثي

لعله من الصعب أن نحدد على وجه الدقة متى، وكيف حدث التحول الدلالي لكلمة "نص" في الثقافة العربية القديمة لتدل على ما نقصده منه اليوم؛ أي على البناء اللغوي الذي يتجاوز حدود الجملة والذي جُعل مقابلا لمصطلح "**texte**" في الاستعمال اللساني الحديث، وهو معنى بعيد إلى حد ما -فيما نرى- عن المعنى المعجمي العربي القديم، أو هكذا يبدو على الأقل عند نخبة من لسانيينا؛ حيث يرى بعضهم أن المفهوم الاصطلاحي الذي اكتسبته كلمة "نص" مفهوم حديث في الفكر العربي المعاصر، وهو ليس وليد هذا الفكر، وإنما هو كغيره من مفاهيم كثيرة في شتى العلوم الحديثة وافد علينا من الحضارة الغربية، وهذا ما يجعل البحث عن أصول هذا المصطلح في التراث الفكري العربي، وربط ذلك بما يدل عليه في وقتنا الحاضر ضربا من التحمل الذي لا تُرجى منه فائدة، فيما يرى بعض أخر أن مصطلح "النص" تم توظيفه في العصر

الحديث في الدراسات الأدبية العربية بناء على الاستعمال الجاري في الجامعات الغربية، وهو مختلف كل الاختلاف عما تقدمه لنا التصورات العربية القديمة المتعددة، بينما فضّل (عبد الملك مرتاض) أن يكون المقابل العربي لمصطلح "texte" هو "النسيج"؛ لأن معنى الترابط المتحقق فيه لا يتوافر في مادة "نصص"، حيث يُبرز أنه رغم المحاولات المتعددة للعثور على ذكرٍ للفظ "النص" في التراث العربي النقدي إلا أن ذلك لم يفض بهم إلى شيء فيما يرى (محمد مفتاح) أن هناك مفردات في اللغة العربية مثل "الكلام"، و"النظم" و"الكتابة"، وغيرها تشترك مع الأصل اللاتيني "texte" في الدلالة على التتابع، والتماسك، والتعالق والتقنين، والشمولية ولم يترجم بهذه الكلمات وإنما تُرجمت بـ "النص"، مع أن له معنى اصطلاحيا ضيقا!

يعترف بعض المختصين بأن مفهوم النص لم يحظ بدراسة تحاول اكتشاف هذا المفهوم في تراثنا إن كان له وجود، أو تحاول صياغته، وبلورته إن لم يكن له وجود، فيما يرى آخرون أن افتقار دلالة [النص] في الخطاب العربي إلى جذر تاريخي بمعناه الحالي لا يقلل من شأن هذا المصطلح، أو من دلالته؛ فالاقتراض ظاهرة عرفتها جميع لغات البشر فضلا عن أن "النص" أصبح مصطلحا قارّا عند الباحثين العرب ومادام الأمر متعلقا بالاصطلاح، فلا مشاحّة في ذلك، كما يقال،

فالنص في ثقافتنا عموما قد حمل دائما قيمة كبيرة انطلقت من دلالة العلو والرفعة، وتواصلت مع دلالات الترابط والتماسك والسبك التي تجمع بين أجزائه اللغوية والدلالية، وهو ما يبرر قيمته التربوية في مناهجنا اليوم، فالنص من المنظور البيداغوجي وحدة تعليمية تمثل محورا تلتقي فيه المعارف اللغوية المتعلقة بالنحو والصرف والعروض والبلاغة وعلوم أخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ، بالإضافة إلى المعطيات المعرفية المتميزة التي صارت تقدمها علوم اللسان في دراسة النصوص وما في ذلك من فائدة جلية تعود بالنفع على العملية التعليمية

4- البيداغوجيا وتوظيف المقاربة النصية :

تُعدّ المقاربة النصية رهانا بيداغوجيا حديثا، باعتبارها ألية المقاربة بالكفايات في دراسة اللغات من حيث نصوصها الأدبية، مما اقتضى ضرورة الربط بين التلقي، والإنتاج، أي مقاربة اللغة بكونها بنية كلية واحدة ينبغي فهمها في همومها، مما يفرض تطبيق مختلف الأنشطة الضرورية في اللغة العربية وفق منظور متكامل يتأسس على استثمار المضامين اللغوية المختلفة لإدماجها من طرف المتعلم لها واستعمالها في الجانب الإنتاجي من اللغة المتعلمة نطقا، وكتابة،

ومن هذا المنطلق يدلي المنهاج مستوى التعليم الثانوي أن يكون الأستاذ علة دراية تامة بمجموعة من التوصيات المتصلة بتنفيذ النشاطات الأساسية في اللغة العربية، من خلال اعتماد المقطع التعلمي الذي يعدّ اللبنة الأساسية في سيرورة التعلمات، مساعدة للمتعلم كي يشارك في بناء تعلماته دون انتظار المعلم، بناء على ملاحظاته وما يصل أليه من معارف

إن الغرض الأساس للمقاربة النصية أن تمكّن تجعل المتعلم قادرا على أن يقارب النص، بل أي نص، مقاربة كلية عبر أبعاده المختلفة، لكي يصبح متمكنا من أن يلج منهج النقد تجاهه، بإبداء رأيه حول مضامينه المعرفية المتعددة، وبالتالي ينشأ على توظيف مداركه الذهنية في نظرته لقضايا أخرى، خارج حجرة الدراسة بأن يصدر أحكمه عليها حتى يتمكن بعد ذلك من كفاية التعبير، تواصلا شفهيا، وكتابيا،

وبالتالي لا يقصد بالمقاربة النصية في بعدا البيداغوجي إلاّ أنها قراءة منهجية لهذا النص. لأنها تمكننا من الإجابة الواضحة عن مختلف الأسئلة المهمة **التي** تطرح نفسها ابتداء بـ: - **ما هي طبيعة دراسة النص ؟ - لماذا المقاربة بالنص ؟ ما هي نظرة المناهج الجديدة لتعلم اللغة العربية ؟ على أي أساس يتم اختيار النص ؟**

والإجابة عن هذه الأسئلة المحورية لا يكون إلا من خلال ما يلي:

5- التطبيق العملي للمقاربة النصية في حجرة التعليم

أ- إن دراسة النصوص ومعالجتها ، في التصنيف المعرفي ، تقع ضمن النشاطات العقلية الأكثر تعقيدا بالنسبة إلى التذكر للمعارف البسيطة التي توجد في الطرف السفلي للمستويات ، في حين ترتفع دراسة النص إلى الطرف الآخر حيث توجد النشاطات المعرفية المعقدة .

ب- إن معالجة النص تقتضي التحكم في اللغة والمهارات الأساسية .في التصنيف لمستويات المعارف : الإنتاج الكتابي (الإبداع) يقع في مستوى ما قبل الأعلى(التركيب) ويقتضي التحكم في المهارات القبلية أي المعرفة والفهم والتطبيق والتحليل ، وذلك يتطلب من المتعلم تنظيم موارده وتوظيفها بكيفية مناسبة للوضعية ،وليس الاكتفاء بتذكر المعارف أو استرجاعها ،وبما أن هذه المهارات تقع في أعلى مستوى سلم التصنيف المعرفي فإنها تعتبر من التعلمات العليا.

- التحكم في أدوات اللغة العربية.
- القدرة على تحليل هيكل النص لبناء المعنى.
- تنمية الرصيد اللغوي والمعرفي.
- تنمية المهارات الأساسية في التواصل الشفوي والكتابي.

ج- إن النظرة الجديدة لتعلم اللغة تتأسس على أنها كل، وهذا ما يبرر وجود الأبعاد الثلاثة للنشاط اللغوي:

- الشفوي والكتابي والقرائي إلى جانب التعلمات الأخرى كالنحو والصرف والكتابة والمعجم ...

وهذه النشاطات والتعلمات هي التي تكون في خدمة النشاط اللغوي وليس العكس.

- التوزيع لنشاطات اللغة وفق طريقة بيداغوجية منسجمة يسمح بشرح كيفية عمل نظام اللغة واعتبارها كلا، وإزالة القطيعة بين مختلف النشاطات التي كانت تنتهج فيما قبل هده المقاربة.

د- - هل للنص دلالة بالنسبة للتلميذ؟ (يثير اهتمام المتعلم)

- ما هي التعلمات المستهدفة؟ (المعجم، التراكيب، الظواهر النحوية والصرفية المدمجة)
- ما هي الكفاءة المستهدفة من معالجة النص؟ (الأهداف التعلمية)
- ما هي المهارات التي ينبغي تنميتها؟

- هل النص يخدم المهارات: الاستماع، القراءة، التعبير والتواصل، الكتابة؟ والكفاية المستهدفة من المقاربة النصية (للنص) هي الإنتاج الكتابي لنص شبيه بالنص المدروس، لأن الغرض من ممارسة نشاطات اللغة، القدرة على التعبير الكتابي.